البحث الثالث

في فلسفة أمين الريحاني

محاولة

الدكتورة إلهام منصور

حين طلب منّي أن أشارك في هذه النّدوة بمساهمة تحت عنوان "فلسفة أمين الرّيحاني" قبلت المشاركة لاعتقادي شبه الأكيد بأن المقصود من عبارة فلسفة الريحاني هنا هو استعمال كلمة فلسفة بمفهومها العام العادي حيث أنّها تعني موقف أمين الرّيحاني وآراءه في القضايا التي انطرحت في عصره بشكل خاص وموقفه من الوجود والإنسان بشكلٍ عام. حاولت أن استعرض فكر الرّيحاني فتبيّن لي أنّه (أي الرّيحاني) أفصح منّي في الإنباء عن ذاته، وأنّ قراءته، بسبب توفّر كتبه بمتناول الجميع، خاصّةً وأنّ قوله في كتاباته هو واضح وأسلوبه سهل. فعدلت عن الفكرة خزفاً من تشويه هذا الفكر. والتشويه- أو على الأقل التأويل- وارد في مطلق الأحوال، لأنّ القارئ، أيّاً كان، له ذاتيته التي من خلالها يقرأ نصّاً ما، خاصّةً إذا كان هذا النّصّ أدبيّاً وليس نصّاً علميّاً. من هنا تبادر إلى ذهني أن أتناول فكر الريحاني بدون أن أتطرق إلى أقواله، يعني أن أبحث في أوالية هذا الفكر. سأحاول إذن أن أجرّد فكر الرّيحاني من مضمونه كي أراه عادياً في تحرّكه. ولكن عملاً كهذا لا نستطيع القيام به إلاّ بعد قراءة أقوال الريحاني استناداً إلى نصوصه. وهذا الاختيار يتطلّب مقدّمة نظرية أو بالأحرى توضيحية لا بدّ منها.

طالما درسنا في الفلسفة وما زلنا ندرّس، أن الفكر الفلسفي ينقسم إلى تيارين كبيرين هما: التيار المادي والتيار المثالي. وإنّ الفلاسفة يخضعون لهذا التقسيم مع اختلافات في درجات المادية أو المثالية عند كل منهم. هذا هو التقسيم الكلاسيكي للفكر الفلسفي عامةً، وهو تقسيم يستند إلى مضمون الفكر أي إلى موضوعه لاستنتاج ماديته أو مثاليته. ولكن تبيّن لي من خلال قراءاتي أن هذا التقسيم قد وضع ربما لأهداف سياسيّة، أو على الأقل قد استغِلّ لأهداف سياسيّة. ولهذا السبب حاولت أن أنظر إلى الفكر من وجهة نظرٍ مختلفة، تعتبر أخذ الفكر في منهج معالجته للموضوع بغض النظر عن ماهية هذا الموضوع ، لأنّ ما يحدّد الفكر، بنظري، ليس مضمونه بل أواليته أو حركته أي برهانيته وذلك لأن الفكر هو نشاط العقل أو فعل العقل، تماماً كالبصر فهو نشاط العين وهو لا يحدد بما يرى بل بفعل الرؤية فيه. يعني أنّ محاولتي انطلقت

من السّؤال التالي: إذا كان تقسيم الفكر قد خضع لمقياس المضمون فهل يا ترى لا نستطيع إخضاعه لمقياس آخر هو الحركة وليس المضمون؟ أرى أنّ مقياس المضمون يخرجنا من الفكر بينما مقياس الحركة يبقينا فيه ولهذا السبب سأعتمد في محاولتي هذه عن فكر الريحاني حركة الفكر وليست مضمونه. ولكن كيف نستطيع تقسيم الفكر من وجهة النظر هذه؟

يبدو لي أن العقل حين يبدأ بالتحليل يلجأ دائماً إلى التقسيم، لإعادة الأشياء إلى عناصرها البسيطة. وانطلاقاً من وجهة نظري السابقة رأيت أن الفكر عند الإنسان (ولا أقول الفكر عامة لأنّي لا أعرفه) في نشاطه أو في فعله عبر التاريخ ينقسم إلى قسمين: فكر علمي وفكر أسمّيه إيمانياً. الفكر الإيماني هو فكر تمثيلي (Pensée illustrative) والفكر العلمي هو فكر رياضي. ماذ يعني ذلك؟ يعني أنّ الفكر التمثيلي ينطلق من مسلمات يعتقد بأنّها ثوابت وحقائق نهائية ويحاول تطبيقها على واقع معين أو على مضمون معين. فينحصر نشاطه في التمثيل فقط؛ بينما الفكر الرياضي، هو أيضاً، ينطلق من مسلمات (Axiomes)، ثمّ ينتقل إلى البرهنة على صحّة هذه المسلمات- وهذه المسلمات ليست كذلك إلاّ لأن البرهنة عليها ممكنة- ثم يأتي التطبيق من تلقاء ذاته (تماماً كما في كتب الرياضيات: مسلمات، البرهنة على صحة هذه المسلمات التي تسمّى في الرياضيات Théorèmes- ثم عرض لمشكلات تحل استناداً إلى المسلمات السابقة). وهذا يعني أنّ الفرق بين الفكرين هو أنّ الفكر الأوّل أي الفكر التمثيلي يتألّف من حلقتين. حلقة تقريرية وحلقة تطبيقية توسعية، بينما الفكر الرياضي يتألّف من ثلاث حلقات أهمّها الحلقة المفقودة في الفكر التمثيلي أي الحلقة البرهانية التي هي، بالضبط، فعل الفكر. والفلسفة لا تشذ "بنظري" عن هذه القاعدة لأنّها مجال من مجالات الفكر يحدّده موضوع معيّن.

إنّ كلمة فلسفة تعني أيتيمولوجيّاً، كما يعرف الجميع، "حب الحكمة". فالفكر الإيماني التمثيلي يعتبر "حب الحكمة" حالة ثابتة وينطلق من تحديد هذه الحالة بإعطائه إيّاها مضموناً معيّناً ويدعو الناس إليها بدون البرهنة على صحة مقدماته. والفكر العلمي الرياضي يعتبر "حب الحكمة" قسمين: حبّاً وحكمةً. يبدأ بتحديد هذه الحكمة التي هي عنده جواب على سؤال يطرحه، والحب هو البرهنة على صحة هذا الجواب وخطئه وذلك لإثباته أو لنفيه. باختصار، نستطيع القول إنّ الفكر التمثيلي يتشكّل من مقدمات ونتائج يريد فرضها كما هي، والفكر الرياضي يتشكّل من مقدّمات ثمّ برهان ثمّ نتائج تفرض ذاتها. ففي الفكر الثاني وسائل الدفاع داخلية لأنّها قائمة فيه وهي البرهان ولذلك هو فكر مسالم، بينما في الفكر الأوّل، وسائل الدفاع هي خارجية، ولهذا السبب فهو فكر محارب يلجأ إلى ما توصّلت إليه التكنولوجيا أو غيرها من سلاح مادي أو معنوي لكي يدافع عن ذاته ويفرض نفسه بالقوة. الفكر الأوّل هو إذن فكر تحليلي يذهب في العمق ويتغذى

من عمله لأنّ البرهان نافذته، بينما الفكر الأوّل هو فكر تقريري يتَّسع انفلاشاً لأنّه لا يملك النوافذ الداخلية الذاتية، وإذا انغلق اختنق وانتهى. فانفلاشيته إذاً هي ضرورة لاستمراره، ولهذا السبب يحتاج إلى مواقع غيره فيشن الحرب عليها لكي يستمر في الحياة. والتاريخ خير شاهد على هذا، فلم نر في تاريخ البشر حتى الآن حرباً قامت بسبب معادلة رياضية أو اكتشاف علمي يملكان أدوات البرهنة على صحتهما، بينما نجد التاريخ مليئاً بالحروب التي تسمى حروباً دينية أو حروباً مقدسة أو طائفية أو سلطوية... وحرب لبنان هي الشاهد الأخير على ذلك.

لماذا هذه المقدمة في ندوة تطرح فلسفة أمين الريحاني كموضوع لها؟ هي "بنظري" ضرورية لأنّها، أوّلاً، وكما اعتقد تساعد في التخلّص من عقدة ما يسمى بالفلسفة والفلاسفة. فإذا كانت الفلسفلة تعني حب الحكمة حقاً، فكل الناس فلاسفة لأن لا أحد بين الناس لا يدعي هذا الحب للحكمة. وتتسع الفلسفة هكذا لتحتوي كل المضامين التي يعطيها الناس لمفهوم الحكمة. ويبقى أن ما يميّز فلسفة عن أخرى هو حركة الفكر فيها، فإمّا أن تكون تمثيلية إيمانية وإمّا أن تكون علمية برهانية؛ ولأنّها، ثانياً، تقدّم القاعدة التي على أساسها سننظر في فكر الريحاني. فإذا كان كل الناس فلاسفة انطلاقاً من هذا الرأي، فإنّ أمين الريحاني هو بالضرورة فيلسوف. وهكذا نكون قد تخلّصنا من مشكلة، النقاش حولها لا ينتهي، إنّها الحل الأسهل والحل هو دائماً سهل عندما تكون المقدمات واضحة.

فأمين الريحاني فيلسوف، ويبقى أن نحدد حركة الفكر ومفهوم الحكمة عنده لكي نرى إلى أي فريق فكري ينتمي. هل هو مناضل إيماني أم هو مسالم برهاني وذلك استناداً إلى التقسيم الذي ارتأيناه في المقدمة.

نعود إذن إلى قول الريحاني في نصوصه، فنجد أنّ المواضيع التي عالجها متعدّدة جدّاً. ولكن وبالرغم من تعددها، فهي خاضعة لمنطق واحد يحكمها أو لخلفية فكرية واحدة تسندها. والمنطق هذا يظهر في صيغة القول عند الريحاني، والتي هي، في غالبيتها إن لم نقل في مجملها تقريرية ينقصها البرهان وتملؤها التناقضات التي هي نتيجة حتمية لغياب البرهان.

في رسائله يطرح الريحاني فكرة الله ويقرّر بأنّها من المجهولات التي علينا أن لا نغوص فيها، فهو يقول: "إنّ ما نعلمه ليس بجزءٍ من ألف مما لا نعلمه... أمّا الله فلنتركه في وحدته ومجده... بين التأكيد (أي تأكيد وجود الله) والنفي طريق وسطى يلزمها العاقل، فيما يصل البحث إلى هذه الأشياء الغامضة. وهذه الطريق الوسطى دعاها هكسلي اللاّإرادية"[1]. فهو يقول إذن إن فلسفته لا تتطرّق إلى المواضيع التي يسميها

[1] رسائل أمين الريحاني ص ٢٢ مأخوذ من كتاب كمال الحاج- خبر الفلسفة اللّبنانية صفحة ٥٥٣ وما بعدها.

"الغامضة". وهو في هذا المجال لا ينفي ولا يثبت، فقط يعلن الابتعاد اللاّمنحاز عما لا يطاله العقل. وهذا المنطلق لفلسفته يحدد لنا الوجه السلبي لحكمته. فما هو الوجه الإيجابي لها؟ يعني إذا كان قد حدد ما يجب أن نبتعد عنه فما هو الذي يجب أن نقترب منه أو نحبه؟

إنّ ما يجب أن نحبّه أو الحكمة في كتابات الريحاني نجدها في قول عام له أيضاً في إحدى رسائله حيث يقول:" ما لنا وللآخرة الآن؟ لتصلح بيتنا هنا..."[2] يعني أنّه يريد أن يحصر أبحاثه وفكره فيما هو قائم في حياة الناس لكي يعلمه. ولكن هذا التّحديد للحكمة هو عام جدّاً، لأنّ الإصلاح يفترض مقياساً على أساسه أو بنداً عليه يتمّ الإصلاح. وهذا المقياس يجده الريحاني في "الحياة الحقة التي تجمع بين محاسن فلسفة الروحيين وفلسفة الماديين... وهي التي تعظم قوة الجسد وقوة العقل وقوة الروح[3]. ولكن الريحاني بعد أقل من خمسين صفحة من هذا القول يعلن التالي: "أنا روحي ولست مادياً. إنّي أرى في كل ما حولي من الطبيعة شيئاً من الجوهر الإلهي الذي نسمي مصدره الأصلي إلهاً أو خالقاً"[4]. وهذا التناقض يجعلنا حقّاً نحتار في أيٍ من القولين نجد أمين الريحاني. ولكن وكما قلت في البداية ليس المهم أن يكون الفكر مادياً أو مثالياً روحياً، المهم بنظري هو حركة الفكر. فما هي هذه الحركة في فكر الريحاني؟

إذا تتبعنا أقواله، نجد أنّه بعد أن قرّر وبدون أي إثبات أن الإنسان هو جسد وروح وعقل، يضيف عاملاً رابعاً إلى مكونات الإنسان هذه، وهو الإرادة حيث يقول: "إذا ضعفت الإرادة في المرء ضعفت معها فضائل النفس والعقل والجسد"[5]. فهل الإرادة هنا تندرج تحت واحدٍ من المعطيات الثلاثة أم أنها معطًى رابع؟ لا ندري. والريحاني لا يقول لنا شيئاً في ذلك، فقط يضيفها بدون عناء البرهنة عليها، تماماً كما فعل حين حدد الإنسان بالروح والعقل والجسد. فإن عدم البرهنة في البداية يسمح له- وهذا هو منطق الفكر التمثيلي- بأن يضيف ما يشاء لكي يتمدد ويتوسع.

وإذا انتقلنا معه لنرى ما هي هذه الحياة الحقة نجد أن الحياة عنده "سُلّم أوله الحيوان ووسطه الإنسان وآخره الملاك، وبرهانه على ذلك إيمانه به، فهو يقول: "نعم إنّي ممّن يعتقدون بالنشوء والارتقاء

---

[2] المرجع السابق
[3] الريحانيات، طبعة منقحة الجزء الأوّل ص ١٥٥.
[4] الريحانيات، طبعة منقحة الجزء الأوّل ص ٢٠٣.
[5] الريحانيات، طبعة منقحة الجزء الأوّل ص ٢٠٣.

وإني لأؤيده... إنّ في نشوء الأنواع وارتقائها عناية إلهية عظيمة. والناموس الطبيعي الذي يُكثر من ذكره العلماء إنّما هو مشيئة الله في الأشياء"[6]. إذ البرهان هنا هو اعتقاد الكاتب بمبدأ معين. وهو النشوء والارتقاء، لكن نشوئيته وارتقاءه قائمان على مشيئة غيبيّة، برهانها الوحيد هو الإقرار بها فقط. وإذا قبلنا بذلك فما هو المقصود من المقدمة التي وضعها الريحاني؟ هل إنّ سنّة الارتقاء تعني أن الحياة بدأت بالحيوان ثمّ تحوّلت إلى الإنسان وستتحول إلى الملاك؟ لا! لأن الريحاني يعطينا جواباً على ذلك بقوله: "القوة الحيوانية التي ينبغي للإنسان أن يرعاها ويتعهدها بالتربية تظهر نتائجها في صحته وصحة نسله. والقوة العقلية في إدراكه ونباهته وحكمته. والقوة الروحية تظهر في شعوره الراقي وفي حبه"[7]. هذا القول يعني أنّ الإنسان يجمع بين الحيوان والإنسان والملاك، فجسده هو الحيوان وعقله هو الإنسان وروحه هو الملاك. ولكن هنا أين يذهب الريحاني بمبدئه الأوّل القائل "بنشوء الأنواع وارتقائها"؟ يعني أين يذهب بمفهوم النوع؟ لا أدري وأظن أنه هو أيضاً لا يدري، ولكنّه قام بعملية تحويل لمبدأ النشوء والارتقاء الداروينى ليطوعه لمقدمته أو مسلمته التي قررت بأنّ الإنسان هو جسد وعقل وروح. وحتى الروح عنده يصبح شعوراً، وهكذا بخطة قلم، دون أن ندرك كيف تم ذلك التحوّل. ولكن من يجيز لنفسه تحويل مفاهيم غيره يجيز لنفسه أن يغيّر ويحوّل في مفاهيمه هو وكل ما نستطيع قوله هنا: سامح الله التحليل لأنّه يشوّه انسياب النص ويفقده جماليته الخطابية الأدبية.

ولكن إذا سلمنا مع الريحاني بصحة مبدئه في النشوء والارتقاء فهل يا ترى هو يسلم مع ذاته في ذلك؟ نعود إلى نصوصه فنجد القول التالي: "فإن نبغ في نيويورك المخترعون وفي لندن العلماء وفي برلين الفلاسفة وفي باريس الشعراء وفي فلورنسا المصورون والنحاتون، ففي البداية ينشأ الأنبياء... لكل منطقة ميزة طبيعيّة ثابتة ودائمة"[8] نرى هنا أنّ الطبيعة التي كانت قائمة سابقاً على ناموس الارتقاء تصبح ثابتة ودائمة. وربّما كان الريحاني معذوراً في ذلك. فالمناسبة التي قال فيها القول الأوّل غير المناسبة التي قال فيها القول الثاني. ولكن فلنترك المناسبات ولنبحث في أقوال الريحاني عما لا يناقض مبدأه.

كيف يتم الارتقاء بحسب مفهوم الريحاني لهذا الارتقاء؟ إنّه يتم بواسطة العلم والتربية. فما هي التربية وما هو العلم بنظره؟

---

[6] الريحانيات، طبعة منقحة الجزء الأوّل ص ١٥٠.
[7] الريحانيات طبعة منقحة الجزء الأوّل ص ١٥٤.
[8] الريحانيات، طبعة منقحة الجزء الأوّل ص ١٢٣.

نبدأ بالتربية في مقالته حول إصلاح الأمة يقول: "ما هي التربية- التربية الحقة؟ إنّها من جهة محض علمية تُحصر في سلامتين سلامة الجسد وسلامة العقل. ولكننا نرى أن الحياة ناقصة إذا نظرنا إليها من الوجهة العلمية وحدها، فيجب أن ننظر إليها كذلك من النواحي الأدبية الروحية الاجتماعية، عندئذٍ تتجاوز التربية صحة الجسد والعقل إلى نية الخلق الكريم والذوق السليم والقلب الفهيم"[9].إذن التربية قسمان: قسم علمي يطال الجسد والعقل وقسم آخر يطال ربما الروح. والريحاني لا يوضّح القسم الأوّل، ولكنه يوسع القسم الثاني ويركّز عليه فيبدو هو الأهم بنظره وينتقل فيه من موضوع التربية إلى موضوع الأخلاق بقفزة سريعة لا ندرك مبرّراً لها سوى أنّها من طبيعة حركة الفكر التمثيلي التي هي انفلاشية وليست تعميقية كما رأينا في المقدمة.

ولكن فكر أمين الريحاني في موضوع الأخلاق يحاول أن يكون علميّاً. فيبدأ بتحديد الأخلاق العالية ويقول إنّها تتكوّن من عشرة أصول، ثمّ ينتقل إلى تحليل بعض هذه الأصول ليبرهن لنا على أهميتها وصحتها في تكوّين الأخلاق التي يسميها عالية.

الأصل الأوّل يقول: "الاعتماد على النفس". والاعتماد على النفس. بعد أن خضع لتحليل الكاتب، أفضى به إلى الاستقلال الفكري. و"الاستقلال الفكري يخرج المرء من أخاديد التقاليد إلى ما انفرج من سبل المعرفة..." وإذا نظرنا في الأصول العشرة للأخلاق نرى أنّ الأصل السّادس منها يقول: "بنبذ العقائد القديمة البالية". أمّا الرّيحاني فلا يتوقّف عند تحليل المبدأ الأوّل من حيث مضمونه، ولذلك يحافظ على وجود المبدأ السادس كمبدأ دون أن يخضعه للتحليل، وكأن السّكوت عنه في التحليل هو إثبات له في التقرير. وهذا أيضاً من طبيعة الفكر التمثيلي الذي يكتفي بنبرته التقريرية لإثبات أو نفي شيء ما.

أمّا في الأصل التاسع الذي هو حب العدل والإنصاف يقول الريحاني: "حب العدل والإنصاف لغيرنا كما لأنفسنا هو من أشرف السجايا البشرية". ولكي يوضح أكثر يقول: "إن من يشعر بذنبه ويقبل الجزاء راضياً صابراً لأشرف ممن يشعر بحقه ويطالب به. وإن من يطلب العدل لنفسه فقط يكشف عن نقص في خلقه وأدبه". ويكمل: "علينا إذن أن نعلم أولادنا... أن يقبلوا العدل...."فإذا نظرنا إلى هذا التحليل نجد أن الريحاني يحاول فيه أن يتبع شكل الحركة البرهانية. ونقول الشكل لماذا؟ لأن ما قام به الريحاني هنا يتلخّص على الشكل التالي:

- المقدمة أو المسلمة هي: العدل والإنصاف أصل من أصول الأخلاق.

---

[9] التطرف والإصلاح ط ٣، المقالة الثانية في الإصلاح.

- البرهنة على هذه المقدمة: العدل والإنصاف عمل أخلاقي شريف.
- النتيجة: إذن علّموا العدل والإنصاف.

نرى هنا أن الحلقة الثانية إن وجدت شكلاً فهي غائبة مضموناً لأنّها تردد توتولوجيا المقدمة الأولى. ويسقط الريحاني من جديد في نمط الفكر التمثيلي.

أما العلم، فأمين الريحاني من المدافعين عنه جدّاً ومن الدّاعين إليه. ولكن ما هو العلم عنده؟ نفتّش في نصوصه فلا نجد نصّاً واحداً حول العلم، كل ما نجده هو نصوص مختلفة حول نتائج العلم، يقول مثلاً: العِلم هو الفاتح الذي سيستولي على الأرض كلّها... فيخترق بسياراته الذهناء ويجتازها إلى قلب البلاد العربية... ويغمغم بلاسلكيته وبطياراته فوق... الجبال والبحار...[10] وهذا الالتباس بين الشيء ونتائجه ليس مستغرباً في الفكر التمثيلي وذلك بسبب عجز هذا الفكر عن تحديد العلمى فيلجأ إلى الأمثلة، فالعلم عنده يصبح السيارة والطيارة والبراد والراديو وما إلى ذلك، أمّا كيف تمّ التوصّل إلى ذلك فهو مغيّب، يعني أن هذا الفكر يهتم بكيفية حدوث الأثر لا بكيفية حدوث النتائج. هذا من جهة. أمّا من جهة ثانية فالخلط بين العلم والتكنولوجيا، نتيجة العلم، هو من الأخطاء الشائعة. ولهذا السّبب يُعذر الريحاني مرّتين.

ولكن الريحاني لا يكتفي بالخلط بين العلم والتكنولوجيا، كما قلنا بل يخلط أيضاً بين العلم والتعليم، فبينما هو يتكلم عن العلم يقول: "علموا أولادكم اليوم تجدوا ضالتكم غداً. افتحوا المدارس اليوم تفوزوا غداً بالوحدة القومية "بالاستقلال الوطني التام"[11]. فالعلم عنده يصبح ما يسمّى اليوم "بالثقافة الوطنية" التي تدعي أنّها هي الثقافة الحقيقية. وهكذا يكون فكر الريحاني قد فاز على صعيد الواقع الاجتماعي. وذلك من خلال اتباعه، ولو أنّه فكر تلتبس فيه المفاهيم. وهنا أيضاً يمكننا أن نجد عذراً للريحاني. فعلم وتعليم هما من أصل لغوي واحد. وربّما عاد الالتباس بينهما إلى فصاحة اللغة وليس إلى عجز الفكر.

يمكن أن نكون قد تجنينا على الريحاني حين تحدثنا عن حكمة لم تكن هي الحكمة بالنسبة إليه. ولكن، كما قلت سابقاً، القارئ هو دائماً مشوّه للنّص أو للقول. فلنترك إذن الريحاني يحدد لنا حكمته.

إنّ الشعار الذي يتصدر نصوص الريحانيات هو "قل كلمتك وامشِ". فهل هذه هي حكمة الريحاني؟ ربّما! وإذا كانت هي حقّاً الحكمة عنده فهو في كتاباته خير من مثل عليها (Il a très bien illustrée)

[10] القوميات ج ٢ ص ١٦.
[11] القوميات ج ٢ ص ٢٨.

فهو قال كلمته في مواضيع مختلفة جداً ولم يترك مناسبة إلاّ وقال فيها قولاً معيّناً. فكانت هذه المناسبات هي التي تحدد القول وليس العكس، وهناك مثل بسيط على ذلك. يقول: "كانت نهضة التعليم عرجاء في الماضي تسير على رجل واحدة، لأنّها كانت على الإجمال مسيحية. أمّا اليوم فهي تمشي على رجلَين وتخطو خطوات كبيرة سديدة لأنّها مسيحية إسلامية"[12]. وفي نفس الكتاب وبعد أقل من ثلاثين صفحة يدعو "لتعليم عصري علماني عمومي تسطع أنواره في المدارس الوطنية المجردة من كل صبغة دينية"[13]. فأي القولين نصدق؟ علينا أن نصدق الاثنين لأن حكمة الريحاني "قل كلمتك وامشِ" هي حكمة معلّقة لا تقبل النقاش ولا الحوار، فقط تعيش في الانفلاش وتحوّل صاحبها إلى فيلسوف مناسبات يطلق العنان لمنطقه التقريري بدون اللّجوء إلى البرهان. والقول التقريري يملأ نصوص الريحاني. يقول مثلاً: "ولد الأتراك أعداء الحرية بل أعداء المدنية"[14]، تاريخ يبدأ بالسلب والنهب والتدمير ينتهي بالشنق والصلب والتجويع"[15]. السياسة وإن بلبلت شعباً فهي لا تستطيع استئصاله[16]. "إنّ مزج الدين بالسياسة يقضي على الاثنين بالفساد"[17]، "الحقيقة يا سادتي هي أن لا وجود للمساواة بين البشر"[18]. والأمثلة كثيرة جدّاً.

والمنطق التقريري له أيضاً نموّه، فهو يتدرّج من التقرير إلى النبوءة، وهذا أمر طبيعي طالما البرهان غائب. ضمن تعبير للحاضر يستطيع أن يقرّر للمستقبل. والتنبؤ عند الريحاني هو أيضاً كثير. يقول مثلاً: "متى تستريح القلّة من التخمة ويأمن الجمهور من الجوع؟ لا أخال ذلك اليوم يراني ويراك أيّها القارئ ولكنني أؤكّد أنّه آتٍ وكلّ آتٍ قريب"[19]. أو "أن توحيد القلوب سيصبح في القريب العاجل أو الآجل توحيداً في الفكر والحكمة...". ونكتفي بهذه الأمثلة.

ولكن إذا سألنا الريحاني عن حكمته، فلماذا لا نسأله عن تحديده لنفسه؟ فهل هو فيلسوف أم لا؟ وجواب الريحاني هو التالي: "... أدعى الفيلسوف، فيلسوف بطيخ"[20]. فهو إذن لا ينفي كونه فيلسوفاً ولكن ينعت فلسفته بالبطيخ. وكلّنا يعلم أنّ البطيخ وبالرغم من سماكة قشوره، يحتوي بعض الماء الذي ينعش في أيّام الحر. وماء بطيخ الريحاني ينحصر، بالنسبة لي في قول له على لسان أحد شهداء الحرب، اكتفي بإيراده كما هو، لأنّه أوضح من أن يعلَّق عليه، وأمرنا في لبنان قد طال جدّاً. يقول الشهيد من دنيا الآخرة:" أيها

---

[12] القوميات ج ٢ ص ٢٨.
[13] القوميات ج ٢ ص ٥٣.
[14] القوميات ج ٢ ص ١٢٥.
[15] القوميات ج ٢ ص ١٢٤.
[16] القوميات ج ٢ ص ١٤٣.
[17] القوميات ج ٢ ص ١٥٩.
[18] القوميات جزء أوّل ص ١٣٧.
[19] القوميات جزء أوّل ص ١٣٧.
[20] القوميات ج ٢ ص ١١٩.

الإخوان إنّ مهزلة المهزلات في الزمان الحديث إنّما هي ضريح الجندي المجهول. فمن منكم يقبل بمثل هذا الإكرام الزائف؟ نحن نكرات الحروب نقول ضريح الجندي المجهول لمن منكراتها. أولئك الذين يحملون أكاليل الزهور تقليداً أو مجاملة لا يدرون أنهم يشتمونا ويزيدون في آلامنا عندما يقفون كالأصنام أمام ذلك الرّخام المشيد فوق العظام المجهولة. ضريح الجندي المجهول، هل هو لغير تحبيب القتال لأبناء المستقبل وتخليد الحروب بين الأمم؟ هل من شيء أفظع من نفاق ورياء الوزراء الذين يحملون الأكاليل إلى ذلك الضريح بيدٍ ويوقعون بالأخرى المشاريع للزيادات الضخمة في التّسلّح البحري والجوي والبري؟ إنّ هذا النصب الفارغ سوف يلقى من ضحايا الحروب المقبلة ما يلقى من احتقارنا نحن ضحايا الحروب الماضية.

"... اعلموا أيّها الشهداء، أن ليس في الحروب حرب مقدّسة وحرب غير مقدّسة، فهي كلّها مثل الحرب العظمى بل الحرب الفظعى. وأفظع ما فيها الأكاذيب وأفظع ما فيها البيانات الكاذبة والوعود الكاذبة والمُثُل العليا الكاذبة. كانت تراق الدماء في سبيل الملوك ولمجدهم، فصارت تراق في سبيل أرباب المال... إنّما نحن المذنبون... سمعنا فأطعنا فاستشهدنا"[21].

[21] الريحانيات ج ٢ ص ١١٢.